تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

يأتي هذا الكتاب بحثًا في أحد أهم أسئلة نظرية المعرفة، وهو سؤال الشكّ في إمكان المعرفة. وفيه يقف المؤلف موقفًا نقديًّا من مدرستين فلسفيتين: مدرسة وثوقيَّة تؤمن بمعرفة مطابقة، قابضة على ماهية الأشياء؛ ومدرسة شكيَّة تنتهي -باسم نقد الوثوق- إلى الشكِّ في إمكان المعرفة بإطلاق. وتكمُن قيمة هذا الكتاب في أنه يسعى إلى شقِّ طريقٍ ثالثٍ في معالجة هذه المسألة الفلسفية العويصة.

لا يتعامل المؤلف مع الشكّ بوصفه خصمًا ينبغي إسقاطه، ولا بوصفه فضيلة مطلقة ينبغي التسليم بها دون تحفظ، بل يميز تمييزًا دقيقًا بين الشكّ بما هو فعل بحثي اختباري، وبين الشكية الفلسفية بما هي نفي لإمكان المعرفة. ومن ثَمَّ فهو لا يرفض الشكَّ من حيث هو سؤال، بل يؤكد أنه أحد شروط المعرفة؛ لأنه يوقظ الفكر ويدفعه إلى استكمال النظر.

ولا يقبل الكاتب الصيغة الوثوقية التي تختزل المعرفة في مطابقة تامَّة بين التصور والموضوع، أو في حيازة ذهنية لماهية الشيء، بل يراجع هذا التصور من جذوره. إذ يرى أن كثيرًا من الشكوك الفلسفية لم تنشأ فقط من ضعف الحِسّ، أو زلل الاستدلال، أو التباس اللغة، بل نشأت أيضًا من تضييق معنى المعرفة وحصرها في مطلب عسير، هو حيازة الماهية. فإذا قيل إن المعرفة لا تكون معرفة إلا إذا اكتنهت ماهية موضوعها، صار العجز عن هذا الاكتناه حُجَّة على نفي المعرفة بإطلاق. أما إذا أُعيد فهم المعرفة بوصفها رنـوًّا إلى الحقيقة، وتدرجًا في الانكشاف، وإحكامًا للفعل، فإن قصور الإنسان عن امتلاك المطلق لا يستلزم سقوط مطلب المعرفة، بل يوجب تواضعًا معرفيًّا يميز بين حدود الإنسان ووجهته.

لذلك فإن إحدى الإضافات الفلسفية المهمة للكتاب تكمُن في نقله سؤال المعرفة من فلسفة المطابقة إلى فلسفة الاستكمال، وهي الفلسفة التي كان المؤلف

قد استعملها في كتابه "**المؤرخ والفيلسوف: أسئلة الإسطوغرافيا وفلسفة التاريخ**" الصادر عن **مركز نهوض للدراسات والبحوث**، فالمعرفة ليست مجرد صورة ذهنية تقابل شيئًا خارجيًّا، ولا مجرد حكم منطقي مبرهن، بل هي فعل إنساني يرنو إلى الحقيقة، ويُقاس أثره بقدرته على إحكام النظر والعمل معًا. ويرى المؤلف أن هذا التحويل من المطابقة إلى الاستكمال يحرر نظرية المعرفة من ثنائية حادة: إما اليقين المطلق، وإما السقوط في العدمية الشكية. وبذلك يفتح الكتاب إمكانًا ثالثًا يرى المعرفة البشرية معرفة تاريخية، متدرجة، ومفتوحة دومًا على الاستكمال.

أما من حيث المنهج، فإن جدة الكتاب ظاهرة في بنائه الثلاثي: الأدوات، والعالم، والوعي. وهذا التقسيم ليس ترتيبًا خارجيًّا للموضوعات، بل هو بناء مفهومي مُحكَم يعالج طبقات المشكلة المعرفية: يبدأ الكتاب بالأدوات، أي الحواس والعقل والاستدلال واللغة والحدود المنطقية؛ ثم ينتقل إلى العالم، أي موضوع المعرفة وإمكان إثبات وجوده خارج التمثُّل؛ ثم ينتهي إلى الوعي، أي الذات التي تمارس فعل المعرفة. وبذلك يُقدِّم المؤلف تاريخ مسألة الشكّ لا باعتبارها سلسلة أسماء ومدارس فحسب، بل باعتبارها انتقالًا في بؤرة الارتياب: من الشكّ في أدوات المعرفة، إلى الشكّ في العالم، ثم الشكّ في الوعي ذاته.

في **الباب الأول**، يظهر اجتهاد الكاتب في قراءة تاريخ الشك الفلسفي قراءةً غير مألوفة. فالقول الشائع يربط نشأة الشكية اليونانية بنقد الحِسّ وأخطائه، لكن المؤلف يقترح تفسيرًا أعمق: فالشكية القديمة لم تنشأ من نقد الحِسّ وحده، بل من المطلب الماهوي الذي جعلته الفلسفة اليونانية معيارًا للمعرفة. لقد أراد أفلاطون وأرسطو تحصين الفكر من التلاعب السوفسطائي بواسطة الحد الماهوي، غير أن هذا السلاح -يقول المؤلف- ارتدَّ على صانعه؛ ومن ثَمَّ فإن الشكية تولدت من داخل فلسفة المثال والصورة؛ لأنها هي التي رفعت مطلب المعرفة إلى مستوى الحيازة الماهوية.

وهذه القراءة تمنح تاريخ الشكّ معنًى جديدًا. فالشكّ ليس مجرد اعتراض طارئ يهاجم العقل من خارجه، بل هو أثر داخلي يتولد حين يبالغ العقل في ادعاء الإحاطة. وهذا ما يجعل قراءة الكتاب لتاريخ الشكية قراءة جينيالوجية بالمعنى الفلسفي؛ إذ

إنهـا تبحث عن الشـرط الذي جعل الشـكَّ ممكنًا، لا عن الوقائـع التاريخية وحدها. لذلك لا يهتمُّ المؤلف فقط بمن قال بالشكّ، بل يسأل: كيف صار هذا الشكُّ ممكنًا؟ ومـا التصـور المعرفـي الذي غذَّاه؟ وما الذي جعل وظيفة الشـكِّ تتبدَّل بين السـياق اليوناني، والعصور الوسطى، والحداثة؟

وفـي **البـاب الثاني**، ينتقل الكتاب من الأدوات إلى العالم. وهنا يواجه واحدة من أشـهر مشـكلات الإبسـتيمولوجيا الحديثة: كيف نثبت أن العالم الخارجي موجود؟ يتناول المؤلف فرضيتي «الحلم» و«الدماغ في وعاء»، ويناقش محدودية الردود التي تكتفي بالحس المشترك، مثل حجة جورج مور حين رفع يديه قائلًا: «هذه يد، وهذه أخرى». ولا ينكر المؤلف قيمة الحِسّ المشترك في رد الوسواس الشكيّ، لكنه يرى أنـه غيـر كافٍ فلسـفيًّا؛ لأنه يثبت الحضـور العملي في العالم، ولا يجيب عن سـؤال المعنى والغاية من هذا الحضور. ومن ثَمَّ فإن الكتاب لا يرضى بردِّ الشكِّ في العالم بمجـرد العـودة إلـى البداهـة اليوميـة، بـل يحـاول أن يكشـف أن أزمـة فكـرة العالم الخارجـي في المنظور الفلسـفي ليسـت أزمة دليل فقط، بل هي أزمـة في بنية التمثُّل نفسها: كيف يخرج الوعي من داخله ليبلغ ما هو مستقل عنه؟

وفي نقاش فرضية «الدماغ في وعاء»، يظهر انفتاح الكتاب على الإبسـتيمولوجيا المعاصـرة بتياراتها الخارجية والداخلية والاتسـاقية. غير أن قيمة المعالجة لا تكمُن في مجرد عرض هذه النظريات، بل في بيان حدودها جميعًا حين تنزع إلى الاختزال. حيـث يُبيِّـن المؤلـف أن الخارجيـة لـم تسـتطع الاسـتغناء عـن اسـتحضار الـذات ومسـؤوليتها وكفاءتها، كما لم تستطع الإبسـتيمولوجيا الداخلية تأسيس التبرير دون وصل الوعي بالعالم والخبرة. وبذلك يخلص الكتاب إلى أن إشكالية إمكان المعرفة لا تُحَلُّ بردِّها إلى الخارج وحده أو الداخل وحده، بل تقتضي إعادة بناء العلاقة بين الذات والعالم ضمن أفق أوسع من مجرد التبرير المنطقي أو السببي.

أما **الباب الثالث**، فهو من أكثر أبواب الكتاب حيويةً في تفكيك المشكلة الفلسفية. إذ يبـدأ المؤلـف من يقين الـذات: فرضية الرجـل المُعلَّق عند ابن سـينا، والكوجيتو الديكارتي، ثم ينتقل إلى هوسـرل والبينذاتية، قبل أن يواجه «مُعلّمي الشـكّ» الثلاثة:

ماركس ونيتشه وفرويد، من خلال استحضار أطروحة بول ريكور، الذي لم يقرأ هؤلاء بوصفهم شكَّاكًا بالمعنى الكلاسيكي؛ فهم لا يشكُّون في وجود العالم، ولا يُعلِّقون الحكم على طريقة البيرونيين، بل يشكُّون في شفافية الوعي. إذ يكشف ماركس عن شرطه الطبقي، ونيتشه عن شرطه القيمي والإرادي، وفرويد عن شرطه اللاواعي.

غير أن المؤلف لا يكتفي بتسجيل هذا التحول، بل يسائل مآله. إذ يؤكد أنه إذا كان ماركس ونيتشه وفرويد قد كشفوا أوهام الوعي، فإن أنساقهم نفسها تقع في أوهام أخطر حين تغلق الوعي داخل المحايثة وتنفي المتعالي. ولهذا يبدو الكتاب حريصًا على التمييز بين نقد الوعي، وهو نقد ضروري، وبين تحويل هذا النقد إلى نفي لكل أفق متعالٍ يمنح المعرفة معناها ووجهتها. فالمشكلة لا تكمُن في كشف شروط الوعي، بل في تحويل هذه الشروط إلى سجن نهائي يحجب كل أفق متعالٍ.

ومن هنا تتضح الأطروحة الميتافيزيقية العميقة للكتاب: فالشك الفلسفي لا يصدر من عطب تقني في أدوات المعرفة وحدها، بل من الوضع الإنساني ذاته. فالإنسان كائن متناهٍ، لكنه مشدود إلى اللامتناهي؛ يطلب الحقيقة المطلقة، لكنه لا يملك حيازتها. ومن هذا التوتُّر بين التناهي والنزوع إلى المطلق تتولَّد الشكيَّة. ولهذا يرى المؤلف أنه إذا فهمنا هذا الوضع بوصفه وَضْعَ نزوع واستكمال، صار الشكُّ محفزًا للمعرفة. أما إذا فهمناه بمنطق: إما الحيازة وإما العدم، فإن تعذر الحيازة يتحوَّل إلى حجة على نفي المعرفة. ومن هنا تظهر قيمة الكتاب في كونه يعيد إدراج سؤال إمكان المعرفة داخل سؤال الإنسان، لا بوصفه آلة إدراكية فقط، بل بوصفه كائنًا استكماليًّا.

وتبلغ هذه الأطروحة ذروتها في الخاتمة، حيث يرى المؤلف أن فضيحة الفلسفة ليست شكّها في العالم، كما يقول هيدغر، بل شكّها في المتعالي. أما الشكّ في العالم فليس له أثر خطير، بل يمكن أن يُردَّ، أو يُعلَّق، أو يُتجاوز بالفعل العملي والانغماس الوجودي، لكن الشكَّ في المتعالي لا يمسُّ موضوعًا من موضوعات المعرفة فحسب، بل يمسُّ شرط المعنى ذاته. وبهذا لا يستعمل الكاتب "المتعالي" لسدِّ فجوات العلم، بل يُقدِّمه بوصفه شرطًا أعمق لإمكان المعقولية نفسها.

ولعل من أبرز القيم المضافة لهذا الكتاب في حقل المعرفة الفلسفية العربية أنه لا يستورد الإبستيمولوجيا الغربية استيرادًا شارحًا، ولا يكتفي -في المقابل- باستدعاء التراث استدعاءً هوياتيًّا. إنه يحاول تشبيك الحقلين: يقرأ أفلاطون وأرسطو وبيرون وأجريبا وديكارت وهيوم وكانط وهوسرل وبوتنام وماركس ونيتشه وفرويد، لكنه في الوقت ذاته يستحضر الفارابي وابن سينا وابن فورك والمازري والخونجي والأرموي والقفال الشاشي، لا بوصفها زينة تراثية، بل بوصفها موارد نظرية قادرة على تجديد التفكير في سؤال المعرفة.

وعلى الرغم من أن الكتاب جزء من سلسلة "**مداخل فلسفية**" التي يصدرها **مركز نهوض للدراسات والبحوث**، فقد جمع بين النهج التعليمي في تناول المشكلة الإبستيمولوجية وجدَّة الاقتراح الفلسفي. وبذلك نرى أنه إضافة مهمة إلى حقل الفلسفة العربية المعاصرة، ومحاولة جادة لإعادة بناء نظرية المعرفة، إذ يؤكد أن المعرفة ليست امتلاكًا للمطلق، بل سَيْر نحوه؛ وليست مطابقة ماهوية، بل إحكام واستكمال؛ وليست شأنًا نظريًّا منفصلًا عن الحياة، بل فعل إنسانيٌّ تتصل فيه الحقيقة بالغاية، والنظر بالعمل، والعقل بالمتعالي.

ولهذا يمكن القول إن جديد الكتاب لا يكمُن في موضوعه وحده، فموضوع إمكان المعرفة قديم قِدم الفلسفة، بل في طريقة إعادة ترتيبه: من تاريخ الشكّ إلى شروطه، ومن نقد الأدوات إلى سؤال الغاية، ومن الكوجيتو إلى المتعالي، ومن المطابقة إلى الاستكمال. إنه كتاب لا يريد فقط أن يجيب عن سؤال: هل المعرفة ممكنة؟ بل يريد أن يعيد صياغة معنى الإمكان نفسه، بحيث يصبح الإمكان المعرفي اسمًا لمسارٍ بشريٍّ متدرج، ناقص، ومفتوح، لكنه مع ذلك حقيقيٌّ وواجب.